من أدب القرن التاسع

كتاب «سحر العيون»

للأستاذ أحمد يوسف نجاتي

— ٣ —

ولقد أنجب المحب بن الشحنة ورزقه الله ذرية مباركة طيبة منهم :

٨ — أثير الدين محمد (وهو سبط العلاء بن خطيب الناصرية، أمه السيدة خديجة بنت العلاء) ولد أثير الدين في شهر صفر سنة ٨٢٤ بحلب ونشأ بها، وأخذ عن أبيه وغيره، وناب عن أبيه في القضاء بمدينة حلب سنة ١٨٣٩ وناب عن جده لأمه في خطابة الجامع الكبير بها أيضاً، ثم استقل بالقضاء في أوائل سنة ٨٥٦ وقلد كثيراً من الوظائف الدينية والعلمية، وقدم على أبيه القاهرة غير مرة وحج معه، واتصل بعلم الدين البخاوي، وفيه يقول كان كثير التودد خيراً من أخيه عبد البر، ولكن ذاك أفضل في الجملة مع سكون هذا وتواضعه وأدبه. وتوفي في جمادى الأولى سنة ١٨٩٨ بمدينة حلب

٩ — سري الدين أبو البركات عبد البر الشحنة وهو أنبه أبناء المحب. ولد في أواخر سنة ٨٥١ بحلب، وانتقل منها صحبة أبويه إلى القاهرة وتلقى العلم بها عن أبيه وجلة وكثير من فضلاء عصره كما سمع ببيت المقدس وغيره، وعرف بالذكاء والفطنة، وقلد كثيراً من وظائف القضاء والإفتاء والخطابة والتدريس بمدارس كثيرة بالقاهرة، وفيه قيل :

دروس عبد البر فاقت على أبيه في الحفظ وحسن الجدل
وذاك عند الأب أمر به نهاية السؤل وأقصى الأمل

وولي قضاء حلب والقاهرة، وارتفعت منزلته حتى كان جليس السلطان الغوري[1] وسميره، ولا غرو فقد كان عالماً أديباً ذا حشمة وفضل وحسن بيان متقناً للعلوم الشرعية والعقلية واللسانية، وقد ترجم له السخاوي ولم يسلم من غمزاته حتى قال فيه : وليس بثقة فيما ينقله ولا بعمدة فيما يقوله، بل هو غاية الجرأة والتقول، ولو تصوّن وسلك طريق السداد أو تستر أو تأدب مع مشايخ الوقت وفضلائه أو ضبط لسانه عن الوقيعة في الأكابر لكان أخلص له وأقرب إلى محبة الناس فيه. إلى أن قال : وصار أبوه بسببه إلى غاية في الامتهان، وقاسى ألواناً من الذل والهوان؛ ولكن عسى أن يكفر ذلك عنه بعض ما اقترفه، فالولد سر أبيه ... الخ. اهـ

أقول : يظهر أن عبد البرّ كان عنده شيء من الاعتداد بالنفس والاعتزاز بمكانته وأنه نافس السخاوي مع أنه أكبر منه وأعلم، ولكليهما تآليف في علوم مختلفة. هذا إلى أني لا أنزه ابن الشحنة من بعض ما وصفه به، ولكل جواد كبوة. وكان

الصورة[1] من تصوير «سلطان محمد» أحد مشاهير مصوري عصر الشاه طهماسب، وهي في مخطوط نظامي السابق ذكره المكتوب لهذا الشاه

وقد صور المصور «رضا عباسي» في القرن العاشر الهجري صورة شيرين واقفة وهي تخرج من الماء شبه عارية، وهذه الصورة[2] محفوظة في مكتبة الدولة ببرلين

(له بقية)

محمد مصطفى
أمين مساعد دار الآثار العربية

(١) منقولة عن : Laurence Binyon, pl. VII وانظر أيضاً : Martin, II, pl. 133 و S. P. A. III p. 1875; V pl. 898 و Sakisian, La Miniature Persane, pl. LXXXII, fig. 147

(٢) أنظر : Kühnel, Islam. و Schulz, II, Taf. 164 Miniaturmalerei, Taf. 88

(١) عاصر القاضي عبد البر بن الشحنة من ملوك مصر الملك الظاهر أبا سعيد جقمق المتوفى سنة ٨٥٧، والملك الأشرف إينال الملائي المتوفى سنة ٨٦٥، والسلطان الملك الظاهر سيف الدين أبا سعيد خشقدم الناصري المتوفى سنة ٨٧٢، ثم الملك الأشرف (قايتباي المتوفى سنة ٩٠١، ثم ابنه السلطان الملك الناصر محمد توفي سنة ٩٠٥، ثم الملك الغوري (قانصوه ابن عبد الله) ولي سلطنة مصر في شوال سنة ٩٠٦ وكان ذا رأي وفطنة وخبر وبر مع دهاء وطمع وعسف، وقد نال أهل مصر من عماليكه أذى كثير حتى طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، فسلط الله عليهم السلطان العثماني (سليم خان)، وكانت بينه وبين السلطان الغوري الواقعة المشهورة بمرج دابق شمالي حلب سنة ٩٢٢ انتهت بقتل الغوري وزوال دولة المماليك الجراكسة من مصر وانتقال الأمر إلى الدولة السلجية العثمانية.

بمصر فى ذلك الحين شاعر هجاء خبيث اللسان جعل لسانه مقراضاً للأعراض اسمه عبيد[1] السلمونى ؛ فكان من يتقى عرضه من كرام الناس يشتريه منه بالإحسان إليه أو بمداراته ، فاتفق أن تعرض للقاضى عبد البر وهجاه بقصيدة يقول فى أولها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها

فأدبه السلطان الغورى وعقد له مجلساً بحضرته فى مستهل شهر المحرم من سنة ٩١٣ وأحضر عبيد السلمونى هذا مكبلاً فى الحديد ، فأنكر أن تكون القصيدة له ، فلم ينجه هذا من تعزيره وأليم تأنيبه

وللقاضى عبد البر بن الشحنة مؤلفات كثيرة ، منها « شرح منظومة ابن وهبان[2] فى فقه أبى حنيفة النعمان » وابن وهبان هو القاضى أمين الدين عبد الوهاب بن أحمد بن وهبان الدمشقى قاضى مدينة حماة توفى سنة ٧٦٨ ، ومنظومته قصيدة رائية من بحر الطويل عدتها ٤٠٠ بيت ، ضمنها غريب المسائل فى الفقه سماها : « قيد الشرائد ونظم الفرائد » ؛ ثم شرحها فى مجلدين وسماه : « عقد القلائد فى أصل قيد الشرائد » ، ثم شرحها قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة شرحاً حسناً قيد فيه ما أهمله الناظم فى شرحه وألحق به مسائل أخرى وفروعاً غريبة ، وغير ما عسر فهمه من بعض أبياته بأوضح منه ، وسمى شرحه : « تفصيل عقد الفوائد بتكميل قيد الشرائد » ؛ وفرغ من تصنيفه فى شهر شوال سنة ٨٨٥ ، ثم هذبه سنة ٨٩٥ . ومن مصنفاته شرح منظومة جده أبى الوليد المتوفى سنة ٨١٥ ، والتى نظمها فى عشرة علوم . ومنها شرح « كنز الحقائق » فى فقه الحنفية (ومتن الكنز هو للامام أبى البركات عبد الله بن أحمد الحافظ النسفى المتوفى سنة ٧١٠) وسمى شرحه « الإشارة والرمز إلى تحقيق الوقاية وفتح الكنز » ومنها « تحصيل الطريق إلى تسهيل الطريق » وهو رسالة أولها : « الحمد لله الذى سهل لمن اختار من عباده طريقاً إلى الجنة » ، ذكر فيه أن بعض الناس أحدث فى طريق القاهرة حوادث تضر بعامة المسلمين ، فألف هذه الرسالة فى دفع مثل ذلك فى شهر شعبان سنة ٨٨٦ . ومنها : « زهر الروض فى مسألة الحوض » تكلم فيه عن حوض دون ثلاثة أذرع وعن حكم الوضوء فيه . وله « الذخائر الأشرفية فى ألغاز الحنفية » ، وله شرح « جمع الجوامع » المشهور فى أصول الفقه لتاج الدين عبد الوهاب بن على السبكى المتوفى سنة ٧٧١ وغير ذلك

وكان القاضى عبد البر شاعراً أديباً ومن شعره :

أأنصار الشريعة لن تراعوا سيغنى الله قوماً ملحدينا
ويخزيهم وينصركم عليهم (ويشف صدور قوم مؤمنينا)

وله مفتخراً ومعدداً مناقبه (وقد كان غير ذلك أولى به) :

أضاروها مناقبَ الكبار وبى والله قد نيا الفخار
بفضل شائع وعلوم شرع لها فى سائر الدنيا انتشار
ومجد شامخ فى بيت علم مفاخرهم بها الركبان ساروا
وهمة لوذع شهم تسامى وفوق الفرقدين لها قرار
وفكر صائب فى كل فن إلى تحقيقه أبداً يصار

وكان بمصر فى ذلك العصر امرأة جميلة مغنية تسمى خديجة الرحابية ذات براعة فى الغناء والإنشاد يتعرض لها شبان عصرها وأهل الخلاعة منهم ، وكان ممن تعرض لها أحد المنتسبين للعلم المسمى محمد بن سالم بن خليل بن ابراهيم القاهرى الأزبكى ولد سنة ٨٥٥ وتوفى سنة ٩٠٠ . فقال القاضى عبد البر يعرض به :

إن تمنعت يا مهاة عن الوصـــل فإنى والله حلو الوصال
لست ندلا ولست فظاً غليظاً لا ولا فى الوجود شىء مثالى

---

(١) ومن هجاء عبيد السلمونى : بدر الدين محمد بن محمد بن يوسف ابن عبد الكريم بن بركة القاهرى ، من أفاضل العلماء فى أواخر القرن التاسع ، فقد عرض به فى قصيدة قالها يمدح بها القطب الخيضرى (محمد ابن محمد بن عبدالله بن خيضر الدمشقى ولد سنة ٨٢١ وتوفى سنة ٨٩٤) يقول فيها :

ألا هكذا فليطلب المجد والعلا وإلا فمجد الجاه والمال زائل
إذا كان علم المرء بالجاه والغنى فما السيف إلا غمده والحمائل
فواحرباً كم عز بالجاه جاهل وكم نال منه ما أرادوا أراذل
فيالك قبطياً دونه الشمس فى الضيا ودون سنا علياه البدر آفل

(٢) ولابن وهبان كتاب (أحسن الأخبار فى محاسن السبعة الأخيار أئمة الخمسة الأمصار الذين اشتهرت قراءتهم فى سائر الأمصار) ألفه سنة ٧٥٦ ومنه نسخة خطية بدار الكتب رقم ٢٩٤٢

وكانت وفاة القاضي عبد البر بحلب في شهر شعبان سنة ٩٢١ رحمه الله تعالى . وذرى الدين عبد البر وأخيه أثير الدين أبناء برة ثم أحفاد المحب بن الشحنة ؛ ومنهم :

١٠ — لسان الدين بن أثير الدين أحمد ولد سنة ٨٤٤ بحلب ونشأ في كنف أبيه وجده ، وربي تربية بني الشحنة ، وقدم على جده المحب القاهرة ، ثم ناب عنه في كتابة السر بها ، ثم ولي قضاء الحنفية بمدينة حلب ، وحج مع أبيه وجده ، ثم فارقهما من عقبة أيلة إلى حلب لمباشرة وظيفته . وكان عالماً عاقلاً عفيفاً كيساً . قال السخاوي : « ... مع فتور ذهنه ، وله نظم وسط فمنه لما فصل جده عن كتابة السر ليحل محله ابن الدّيري[1] :

كتابة السر قد أضحت مشوهة ... لما قلاها محب الدين قد هانت
وأصبح الناس يدعون المحب لها ... كيما يرق عليها بعد ما بانت

توفي شهيداً بالطاعون سنة ٨٨٢ رحمة الله .

١١ — وأخوه جلال الدين محمد ويكنى أبا البقاء مثل كنية البدري صاحب « سحر العيون » : نشأ نشأة سلفه وأهله ، وتلقى العلم بحلب وبيت المقدس والقاهرة ، وولي قضاء حلب سنة ٨٦٢ ، وقدم القاهرة غير مرة ، ثم أدركته منيته بها بعد علّة طال أمدها في شوال سنة ٨٩٣ رحمه الله . قال السخاوي : وكان ذا شكالة وهيئة ، غير محمود في دينه ولا معاملاته ، عفا الله عنه وإيانا

١٢ — وأخوه عفيف الدين أبو الطيب بن أثير الدين ابن المحب حسين بن محمد ولد سنة ٨٥٨ وسمع عن جده وغيره ، وقدم القاهرة غير مرة ، وأخذ عن بعض علمائها ، وكان يتردد بينها وبين حلب ، وولي قضاء حلب وكتابة السر بها ، ولما عاد إلى القاهرة بعد موت أخيه المتقدم سنة ٨٩٢ في أيام الملك الأشرف أبي النصر قايتباي[1] أمر بنفيه إلى الواحات ، فذهب إليها ولبثها حيناً حتى شفع فيه فعاد ، ثم توفي بالقاهرة مطعوناً في شهر شوال سنة ٩١٠ رحمه الله ؛ قال السخاوي : وكان مع كثرة اشتغاله جامداً وله اعتناء بالخيول . اهـ

١٣ — عبد الغفور بن عبد البر توفي في طفولته بالطاعون سنة ٨٢٢

١٤ — وأخوه قاضي القضاة محب الدين محمد بن سري الدين قاضي القضاة عبد البر . ولد بمدينة القاهرة ونشأ بها ، واشتغل بالعلم على أبيه وغيره ، وولي نيابة الحكم عنده ، ثم نيابة الحكم عنه ، ثم قدم مدينة حلب عند انقضاء الدولة الجركسية سنة ٩٢٢ بعد أن حج وجاور بمكة . وكان لطيفاً أديباً حسن البزة جميل المطارحة لطيف المازحة مقداماً مهيباً دمث الطباع رقيق الحاشية أديباً شاعراً . وتوفي ببلدة حلب في شهر شعبان سنة ٩٥١ رحمه الله ، ومن شعره :

يا حبيبي صل مُعَنّى ... ذاب وجداً وغراما
وارحمن صبًّا كساه ... غزل عينيك سقاما
ورماه عن قسّي الحـ ... ـاجب اللحظُ سهاما
أنحلته رقة الخصر ... تحولاً حيث هاما
لا يرى إلا خيالا ... إن تقل فيه نظاما
لم يذق من يوم غبتم ... عنه لا أكلاً ولاما
أطلقت عيناه نهراً ... طلقت منه المناما
أوقدت حشو حشاه ... نار خديك ضراما
عجباً للنار فيه ... وبه حزت المقاما
إن بعد الوصل عادت ... بك رداً وسلاماً

(يتبع)

أحمد يوسف نجاتي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

---

(١) ابن الديري (نسبة لمكان قرب نابلس) هو القاضي برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن سعد المقدسي الحنفي نزيل القاهرة ، ولد سنة ٨١٠ وولي كتابة السر بالقاهرة سنة ٨٦٦ ولم يلبث أن فصل عنها وتوفي سنة ٨٧٦ ، وكان عالما أديبا تقلد عدة وظائف علمية بكثير من المدارس بالقاهرة ، كما ولي القضاء والخطابة وكتابة السر ، وكان حميد السيرة عف السريرة

(١) ولي السلطان قايتباي أمر مصر في أوائل شهر رجب سنة ٨٧٢ وكان ملكا جليلا وسلطانا نبيلا ، وله اليد الطولى في إسداء الخير والطول المكامل في نشر المبرات ، وكان حسن الشيمة عظيم الاحتياط في شأن الوظائف الدينية والعلمية : كالقضاء والفتيا والتدريس ؛ فلا يولي شيئا من ذلك إلا من طابت سيرته وعلم أنه أصلح من يقوم بما يعهد إليه بعد روية وبحث ، وله في نشر العدل والعلم ما يحمد أثره ويطول شكره ؛ وتوفي في ذي القعدة سنة ٩٠١ رحمه الله